ثالثاً: ولادة حقل الانثروبولوجيا

لقد تطلب الأمر جيلين كاملين من علماء الانثروبولوجيا للوصول الى درجة الاحتراف لعلم لم يكن في الأصل غير هواية أو سعياً للمعرفة تبناه ((نبلاء)) المجتمع[١] ففي بريطانيا شغل ادوارد تايلور كرسياً خاصاً في الانثروبولوجيا في جامعة أكسفورد عام (١٨٨٤) [٢] يعتبر تايلور من الرواد السابقين في الانثروبولوجيا التراثية بل المؤسس لها وقد كان لكتابه الأبرز الثقافة البدائية(١٨٧١) الذي تظهر فيه آثار نظرية دارون في النشوء والارتقاء البيولوجي أثر كبير في تطور النظرية القائلة بالعلاقة الارتقائية من الثقافات البدائية الى الحديثة وفي لك الكتاب قدم تايلور تعريفاً للثقافة ما زال مقبولاً ومستعملاً الى حد كبير في حقل الانثروبولوجيا الى يومنا هذا ((تلك الوحدة الكلية المعقدة التي تشمل المعرفة والايمان والفن والاخلاق والقانون والعادات بالإضافة الى أي قدرات وعادات يكتبها الانسان بوصفه عضواً في المجتمع))[٣] وكان من المهم جداً افتراضه الصريح بـ ((وحدة النفس البشرية)) وهي الفرضية التي شكلت تحولاً عظيماً في تعدد المعاني لدى الاثنوغرافيين وفي الالتزام الشامل والانساني بالمساواة والقيم الخلقية لكل النوع البشري وادخلت في الانثروبولوجيا نزعة النسبية[٤] فقد كان يسلم بأن المسارات الثقافية التي سلكتها الشعوب لم يكن لها أن تتكرر أينما كان على وجه واحد عبر تلك الحركة الاحادية الخط التي جعلها مورغان واخرون غيره عنوان نظريتهم الرئيسي فقد كشفت له خبرته الميدانية في المكسيك عن أهمية الاحتكاك الثقافي ومحاكات الشعوب بعضها لبعض مما جعله يعتقد بامكانية أن يكون التطور قد تم بناءً على

---

[١] ماثيو انجيلكه، مصدر سابق، ص٢٢=-٢٣

[٢] شاكر مصطفى سليم، مصدر سابق، ص٧.

[٣] كليفورد غيرتز، مصدر سابق، ص٢٤.

[٤] فردريك بارت واخرون، الانثروبولوجيا حقل علمي واحد واربع مدارس، مصدر سابق، ص٢٠.

مساهمات خارجية وانه كان والحالة هذه أشد تنوعاً مما يظن البعض ، تشبث تايلور بمفهوم(الرواسب) التي حددها بأنها ((الممارسات والاراء التي استمرت على قيد الوجود بفعل العادة ضمن وضع جديد من أوصاع المجتمع مختلف عن ذاك الذي كانت قد نشأت فيه من هنا كان الاهتمام الذي بداه الانثروبولوجيون الأوائل بالعادات والمعتقدات الغريبة التي من شأنها في نظرهم أن تنم عن جوانب معينة تنتمي لمرحلة سابقة ، ثم توسع تايلور بأبحاثه بعد ذلك لتشتمل على الظاهرة الدينية بشكل عام ، ما هو الدين؟ يعرف تايلور الدين بأنه ((الاعتقاد بوجود كائنات روحية)) وهذا التعريف مماثل للظاهرة التي كانت برأيه الأساس في نشأة الدين ((الأرواحية)) والتي اعتبرها ممارسة تنحو الى اضفاء الطابع الروحي على العالم الطبيعي اي انها تسبغ روحاً أو نفساً على عناصر الطبيعة من نباتات وحيوانات وأمكنة[١] ويشبه موقف تايلور حول وحدة الجنس البشري وتطور أنماط تفكيره ما جاء به جيمس جورج فرايزر في كتابه الغن الذهبي : دراسة مقارنة في الاديان (١٨١١- ١٨١٥- ١٢ مجلداً) وكانت الفكرة الرئيسية في ذلك الكتاب تطور الفكر الانساني من النمط السحري الى النمط الديني فالنمط العلمي في التفكير ومع ان الفكرة لم تكن مرضية تماماً في حقل الدراسات الانثروبولوجية فان المعلومات التي جاء بها فرايزر في ذلك الكتاب حول ممارسات الانسان البدائي السحرية ثم الدينية (حيث حاول الانسان في الاولى السيطرة على مجريات الحياة بواسطة تقنية تعتمد على تفكير مغلوط وحاول في الأخرى الاستعانة بالقوى الغيبية التي تصور وجودها في ذلك)، وكان من اسهامات فرايزر في هذا المجال فكرة الملك الإله التي كانت تقوم على ان صحة المجتمع تقوم عل صحة الملك – الاله وعلى

---

[١] جاك لومبارد، المدخل الى الاثنولوجيا ، ترجمة: حسن قبيسي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص٧٥-٧٦.

ضرورة قتل الملك حين تعتل صحته ليحل محله آخر يتمتع بالصحة والحيوية للازمين للمحافظة على صحة المجتمع[١].

لقد ناضل المؤسسون الأوائل من أجل دمج الانثروبولوجيا في النظام الجامعي وكتب (برونيسلاف مالينوفسكي) الذي اعترف به بوصفه المؤسس الأول للانثروبولوجيا البريطانية بالرغم من انه لم يكن بريطانياً لا هو ولا الكثير من طلابه نقداً لاذعاً للهواة أو أي ضباط أو مبشرين بقوة ،مقارنة بالعقل الذي يسعى وراء وجهة نظر علمية وموضوعية للأشياء[٢]

افتتن مالينوفسكي منذ صباه كتاب فريزر (الغصن الذهبي)فتحول عن اختصاصه الاكاديمي الاصيل في الفلسفة والفيزياء والرياضيات الى الاهتمام بالانثروبولوجيا اهتم بداية بالنصوص المرتبطة بسكان استراليا الأصليين ثم توجه في عام ١٩١٤ الى غينيا الجديدة للقيام بأبحاث ميدانية مباشرة حيث درس قبائل المايلو وكتب عنها ثم سافر الى جزر التروبرياند حيث أمضى أوقاتاً طويلة بين عام ١٩١٥، ١٩١٦ ثم ١٩١٧، ١٩١٨، وأقام في خيمة مع سكان البلاد يتكلم لغتهم بطلاقة ويسجل ملاحظاتهم ويجري مقابلات منهجية ويراقب تفاعلات السكان مع أحداث الحياة اليومية ما مكنه من تقديم صورة حركية وحيوية عن مؤسساتهم الاجتماعية مع التمييز بين المثل الاجتماعية العليا والسلوك العقلي وتركزت ملاحظات مالينوفسكي على نواحٍ متعددة من حياة السكان منها : لاحتفالات والزراعة والاقتصاد والجنس الزواج ولحياة العائلية وعلى القانون البدائي والعادات وعلى السحر والخرافة الأمر الذي مكنه فيما بعد من تقديم استنتاجات نظرية ساهمت في تطوير الانثروبولوجيا وفي كتابه المشهور (ملاحو غرب المحيط

---

[١] كليفورد غيرتز، مصدر سابق، ص٢٥.

[٢] ماثيو أنجيلكه، مصدر سابق، ص٢٤.

الهادئ) يصر مالينوفسكي على ان عمل الباحث الانثروبولوجي يجب أن يتسم بالمراقبة التشاركية وان هدفه هو (الوصول لفهم وجهة نظر سكان البلاد الأصليين وعلاقتهم بحياتهم وادراك رؤيتهم لعالمهم))[١]

أضفى مالينوفسكي بعداً ثورياً على البحث بأن أولى ((للميدان)) وللتحقيق المباشر مكانة بارزة وهو يتعارض في ذلك مع العلماء الكتبيين (أصحاب المقاعد الوتيرة)(أرمشير انثروبولوجي) وكان من أوائل الذين شددوا على ضرورة القيام بالحث في موضعه ، لقد كانت دراسة أهالي الجزر التروبريايندية واحدة من أطول الأعمال التحقيقية التي أنجزت في ذلك الحين فتحول الباحث معها الى محقق يعتمد على تحقيقاته الخاصة ولم يعد بحاجة للاستناد الى أقوال مشكوك بها ونادراً ما تكون قابلة للتحقق من صحتها أو الى مشاهدات تمت على سبيل الهواية ، لكن التحقيق يستلزم تحضيراً نفسانياً وحالة ذهنية من شأنها أن تمكن المعاين من تناسي ثقافته الخاصة وتجعله يتماشى مع أي شكل من أشكال التعصب القومي الذي يدفعه الى الحكم على هذه المجتمعات الأجنبية التي تكون غريبة بناء على معاييره وقيمه الخاصة وقد استغل مالينوفسكي مقدمة كتابه المغامرون ليندد بالأحكام المسبقة والصور المنمطة التي كونها المستعمرون عن الأهالي إذ حكموا عليهم بالبلادة والكسل أو صوروهم بصور من تتحكم بحياتهم سلوكات ونظريات متنافية مع مقتضيات العقل وتجعلهم غير مؤهلين لأي ضرب من ضروب التقدم كما هاجم الاستعمار والاداريين أو الارساليين الأوربيين وحملهم مسؤولية المس بالعادات والمعتقدات التقليدية التي يدن بها الأهالي الأصليون وأشار الى ان من واجب الباحث الانثروبولوجي أن يتناسى كل مراجعه الثقافية وأن يفسرها وفقاً للمنطق الخاص الذي تعتمده الثقافة الواحدة وهو منطق يفترض بالباحث أن يكتشفه من

---

[١] كليفورد غيرتز، مصدر سابق، ص٢٧-٢٨.

داخل الثقافة نفسها ، فاذا توافرت في الباحث هذه المقومات التي تجعله ينفتح على المجتمع المدروس فان عليه أن يلزم نفسه عندئذ بالعيش بين القوم الذين يدرسهم((وأن ينقطع عن مجتمع البيض بأن يظل على أوثق صلة ممكنة بالأهالي)) لا أن يكتفي بالاقامة لدى أحد أبناء وطنه وأن يقوم ((بالتجول في القرية)) في ساعات معينة ثم ان ضرورة هذا ((الغوص)) في الثقافة الواحدة تفترض أن يتوفر بصاحبها بعد ذلك شرط اخر من شروط العمل وهو أن يتولى بنفسه مشاهدة كل شيء وأن لا يعتمد فقط على الأخبار والأوصاف التي يحدثه عنها أحد الاخباريين حتى ولو كان من الواجب أحياناً استخدام هذا الاخباري من اجل اكتشاف بعض جوانب الحياة المجتمعية التي لا تظهر جلية على السطح[1]في الولايات المتحدة الامريكية وضع فرانس بواس الذي حصل على لقب(أب الانثروبولوجيا الامريكية) الانثروبولوجيا على سكة البحث المنهجي ،كان بواس الذي هجر تخصصه الجامعي في الفيزياء والجغرافيا وانخرط في البحث الانثروبولوجي حيث استعمل المنهجية العلمية للتوصل الى فهم الحضارات والتراثات الانسانية في وقت كان ذلك الحقل يقوم على صياغة نظريات عمومية تأسيسا على الحكايات والنوادر وتخصص بواس في تراثات وثقافات الهنود الحمر في امريكا الشمالية وبالاضافة الى ذلك كان استاذا لعدد من العلماء الذين طوروا الانثروبولوجيا في امريكا منهم الفريد كروبر وروث بندكت ومارغريت ميد وغيرهم، وفي عام١٩٣١ نشر بواس كتابه عقل الانسان البدائي وهو سلسلة من المحاضرات حول التراث والعرق كان بواس يهاجم فيها التمييز الذي كان يمارس ضد المهاجرين من الثقافات الاخرى وقام النازيون في الثلاثينيات بأحراق نسخ الكتاب وبالغاء شهادة الدكتوراه التي كان بواس قد نالها من جامعة (كيل) في المانيا، موطنه الاصلي، الا انه عاد واصدر الكتاب منقحا مع

---

(١)جاك لومبارد ، المدخل الى الاثنولوجيا،مصدر سابق،ص١٧٢-١٧٤

اضافات في عام (١٩٣٧) ومن كتبه الاخرى الفن البدائي١٩٢٧٠) واللغة والثقافة(١٩٤٠) ، مع تعاظم قوة النازية في المانيا في منتصف الثلاثينيات ومع احتدام العنف في الحرب الاهلية الاسبانية اخذ بواس ينشر افكارة الانثروبولوجية حول التعصب العرقي في المجلات الشعبية وجمعت هذه المقالات بعد وفاته في كتاب بعنوان العرق والمجتمع الديمقراطي نشر في عام ١٩٤٥ واعيد نشره في عام ١٩٦٩([1])تكمن الاهمية التاريخية لانجاز بواس في حقل الانثروبولوجيا في انه كان من الاوائل الذين اعتنقوا عمليا الفكرة القائلة بان افراد الاعراق البشرية المختلفة يمتلكون القدرة ذاتها على التطور الفكري والثقافي([2])وتتضح افكار بواس في نتائج دراسته التي اجراها عن الاشكال الجسمية المتغيرة لنسل المهاجرين في الولايات المتحدة الامريكية وكان من الطبيعي ان تثير هذه الدراسة ضجة في اوساط الدارسين المختصين بعلوم الانسان فالأول مرة في تاريخ الانثروبولوجيا نشر بحث مدعوم بالوثائق حاول فيه كاتبه ان يبين ان بعض الفئات البشرية على اقل تقدير لاتحافظ على الثبوت الذي كان يعتقد انه يلازم الانواع العرقية التي تنتمي اليها وانما، على النقيض، من ذلك تعكس ميلا ملحوظا الى التغير تبعا لتغير الظروف البيئية وهكذا تبين ان التعبير العضوي للانسان مرن وخاضع لاثر الوسط الذي يتطور فيه الكائن الحي،كما تبين ان اثر البيئة يزداد تبعا لتقادم العقود والاجيال([3])

[1] كليفورد غيرتز، مصدر سابق،ص٣٣-٣٤

[2] المصدر نفس،ص٣٤-٣٥

[3] رالف لنتون، اللانثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، مصدر سابق ص٤٧-٤٨